المحاضرة رقم (04)
المدارس في المغرب الأوسط

عرف التاريخ الإسلامي ظهور المدرسة النظامية كمركز تعليمي مع مطلع القرن (5هـ/ 11م) ببلاد المشرق في أول الأمر. أما فقي بلاد المغرب فقد كان النشاط التربوي والتعليمي فيها، لا يزال يزاول في الكتاتيب والمساجد وظل هذا الوضع قائمًا إلى منتصف القرن (7هـ/ 13م) حيث سجلت المصادر بأن السلطان الحفصي أبا زكريا (ت 647هت/ 1249م) قد أنشأ أول مدرسة بالمغرب الأدنى، وهي مدرسة الشماعين أو المدرسة الشماعيةّ، وتسمّى كذلك بأم المدارس ويعود تاريخ بناءها إلى ما بين (633هـ/ 1235م- 647هـ/ 1249م) يعني مع بداية قيام الدولة الحفصية.

ثم النتقل نشأة بناء المدارس إلى الدولة المرينية حيث تم بناء مدرسة الصفارين في عهد الأمير "يعقوب بن عبد الحق" المريني سنة 675هـ وكانت المدرسة آنذاك تلحق بها بعض المرافق الضرورية المتعلقة بحياة الطلاب الذين يقصدونها لطلب، كبناء جناح لإيواء المسافرين والطلبة وعابري السبيل بالإضافة إلى المكتبة التي تعتبر أهم مورد للطلاب الفقراء في اقتناء الكتب وكذا الأستاذة.

أما موارد المدرسة المالية التي كانت تنفق عليها فكانت مصادرها تتمثل على الخصوص في الأحباس والأوقاف التي تُقف عليها من قبل السلاطين وميسوري الحال، حيث يتم صر عائدات الأوقاف على الطلبة المقيمين بالمدرسة ودفع أجور الأساتذة الذين يدرسون فيها. وكذا أجور القائمين عيها كالسدات وبهده العائدات يتم صيانتها وترميم بناياتها.

وكانت هذه المدرسة تخضع لنظام الحسبة، حيث يقوم المحتسب بزيارتها من حين لآخر ليتأكد من سلامة بناءها وحضورها بغض الدروس. والاطلاع عل مناهج الدراسة وكتبها وهذا كله حتى يمنع أدعياء العلم، من التصدي لتعليم الناس فيها.

وكان المغرب الأوسط آخر من يعرف المدرسة النظامية بعد الحفصيين والمرينيين، حيث اعتنى سلاطين بنو عبد الواد ببناء المدارس ووقف الأوقاف عليها.

هذا وقد عدّ الحسن الوزان أثناء رحلته لتلمسان مع مطلع القرن 10هـ/ 16م أنها تحوي على خمسة مدارس ومدرسة واحدة بوهران، وهذه المدارس هي التي ساهمت بشكل فعّال في نمو وازدهار الحركة التعليمية بالمغرب الأوسط ودفعتها

إلى الأمام أثناء حكم دولة بني زيان. ومن أهم المدارس التي عرفها المغرب الأوسط خلال الحقبة الزيانية هي:

1) مدرسة ابني الإمام:

كانت هذه المدرسة أول مدرسة يؤسسها بنو زيان ببلاد المغرب الأوسط تم بناؤها بأمر من السلطان أبي حمو موسى الأول (ت 718هـ/ 1318م) ويعود بناؤها إلى الربع الثاني من القرن 8هـ/14م، وعين للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام، وهما العالمان أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى فخملت المدرسة اسمهما. ولم يبق من هذه المدرسة اليوم سوى المسجد الصغير بمنارته الذي أسس بجانبها ويعرف عند أهل تلمسان باسم "مسجد أولاد ليمام" وكان موقع هذه المدرسة بالقرب من باب الجياد.

2) المدرسة التاشفينية:

تُعد أهم مدرسة بالمغرب الأوسط، شيدت من قبل السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الزياني لفائدة العالم "أبي موسى عمران المشدالي الزواوي" أعرف أهل زمانه بمذهب الإمام مالك. وقد جهز السلطان لبنائها أمهر البنائين والمهندسين والفنانين، ذوي الكفاءات والمهارات العالية في البناء والزخرفة والتزيين، فكانت هذه المدرسة الجليلة عديمة النظير، وكان موقعها بإزاء الجامع الأعظم وقد اعتبر التنسي يوم تدشينها يومًا عظيمًا ومشهودا، حيث حضره العلماء والفقهاء وأدباء تلمسان.

وظلت هذه المدرسة تمثل أضخم مدرس المغرب الأوسط تقدم وظيفتها التعليمية لمدة خمسة قرون.

3) المدرسة اليعقوبية:

أسست هذه المدرسة من قبل السلطان "حمو موسى الثاني" وسماها اليعقوبية تخليدًا لذكرى والده "أبي يعقوب يوسف" حاكم مدينة الجزائر، الذي توفي بها سنة 763هـ/ 1362م، فأمر ابنه أبو حمو موسى الثاني أن يدفن في رياض باب إيلان، ثم نقل إلى جواره رفاة عميه الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت. من قبريهما من العباد. ثم بدأ بناء هذه المدرسة بإزاء أضرحتهم، وبعد إتمام بنائها استدعى الإمام العالم الشيخ الشريف الحسني أبا عبد الله (ت 771هـ/1370م) للقيام بالتدريس فيها. وكان "أبو حمو موسى الثاني" يحضر مجالس إقراء هذا العالم فيها، جالسا على الحصير تواضعا للعلم.

4) مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد:

أنشأ هذه المدرسة السلطان المريني أبو الحسن عام 737هـ/ 1336م أثناء استيلائه على تلمسان وتن بناءها بالعباد سنة 748هـ/ 1347م وهي تقع غرب جامع أبي مدين شعيب. وقد عرفت هذه المدرسة بفنها المعماري ذو الصبغة العربية الإسلامية، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا تهد على مدى ازدهارها العمارة الإسلامية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

5) مدرسة منشر الجلد:

ذكرها صاحب البستان ويرجح أنها كانت بالقرب من مسجد ابن البناء

6) مدرسة الحسن بن مخلوف الراشدي أبركان:

ورد ذكر هذه المدرسة عند ابن مريم المديوني ف البستان ويقال أن مؤسسها السلطان أبي العباس أحمد العاقل الزياني ما بين سنوات 834-865هـ/ 1431-1462م وموقعها كان قرب مسجد سيدي أبي الحسن.

7) مدرسة مدينة الجزائر:

أنشأ هذه المدرسة "أبو الحسن المريني" وهي غبارة عن مكان لإيواء الطلبة، حيث يقيمون فيه مدة دراستهم ويأخذون عن أساتذتها مختلف العلوم، كما كان في مدينة الجزائر مدارس أخرى كالمدرسة العنانية ومدرسة ابن السلطان.

8) مدارس وهران:

لقد انفرد حسن الوزان بذكر هذه المدارس دون التطرق إليها بالتفصيل.

9) مدرسة مازونة:

هي نموذج مصغر لمدراس تلمان.